الإنسان والتقدم

بقلم الدكتور
سعدون حمادي

- ١ -

تواجه العلوم الاجتماعية صعوبة في البحث ناتجة عن كون السببية متصلة ، الامر الذي يجعل عملية التحليل معقدة صعبة الاستعمال كأداة لتكوين المعرفة . فمن المعروف عن الاوضاع الاجتماعية ان العوامل المتفاعلة بها متقابلة بالتأثير ، والنتائج تختلط بالاسباب مما يجعل الوصول لمعرفة صحيحة عن الظاهرة المدروسة صعبا . ومصدر هذه الصعوبة هي ان موضوع البحث هو الانسان نفسه ، والانسان كائن معقد يصعب ضبط سلوكه بقانون معين .

وتتوضح هذه الصعوبة في السببية عندما نحاول بحث قضية التطور الاجتماعي ، التي هي موضوع هذه المقالة . السؤال المركزي هو كيف نفسر التطور الاجتماعي ؟ في التاريخ اندفاعات حضارية معروفة ، فما هو تعليل ظهورها ، في حين بقيت اجزاء اخرى من العالم متخلفة ؟ في العالم اليوم تفاوت كبير في التقدم الاقتصادي ، فكيف نستطيع تفسيره ؟ لماذا حدثت النهضات في بعض الاقطار ولم تحدث في اقطار اخرى ؟ المجتمع العربي الحاضر متخلف بشكل عام ، فكيف يمكننا ان نحدث نهضة شاملة فيه ؟

نحن نعرف بشكل بدائي ان في التطور الاجتماعي عنصرين: الانسان بكل قواه والطبيعة كمادة تحيط به ، وان الانسان يعيش ضمن اوضاع اجتماعية وسياسية واقتصادية وفكرية بينه وبينها علاقة ما ، وان مادة الطبيعة مترابطة بفعل قوانين معينة تنظمها وتعين العلاقة بينها ، وان بين الطبيعة كمادة منظمة بقوانين وبين الانسان ضمن مجتمعه ومحيطه علاقة ما ، ومن مجموع هذه العلاقات تنتج اوضاع معينة تقرر المرحلة الحضارية للانسان بصورة عامة ، اي ان درجة التقدم ونوعيته تتوقف على نوعية هذه العلاقات . ولكن كل هذه المعرفة عامة لدرجة لا يمكن ان نستخلص منها حكما مفيدا عن قضية التطور ، اذ لا بد من اعتماد التخصيص وتحديد العوامل الداخلة في الموضوع والعلاقات القائمة بينها ، اي تحليل القضية لعناصرها الاولية ، وتوضيح طريقة تفاعلها من خلال التشابك والتقابل في التأثير .

هذا هو موضوع البحث : محاولة ايجاد تفسير للتطور الاجتماعي بصورة عامة والوصول عن طريق ذلك لتفسير التطور في المجتمع العربي .

- ٢ -

كخطوة اولى في التحليل يمكننا ان نفصل القوى المتفاعلة في التطور الى ثلاثة : الفرد والمجتمع والطبيعة ، هذا التقسيم كيفي اخترناه لا لشيء الا لانه يساعد على توضيح نقاط تهمنا في البحث .

الانسان كفرد يشكل بما لديه من فكر وقوى عقلية وجسمية وارادة وحاجيات ورغبات وامال تعمل كحوافز للنشاط ، وحدة فاعلة ذات علاقة بما حولها . ويمكن ان نقول عن هذا الانسان كفرد انه الانسان بحالته الطبيعية ، بصفاته وخصائصه الاولى ، ليس به غير ما يعود له في الاصل . اي انه الانسان بوضعه المجرد عن كل ما هو دخيل عليه من الخارج سواء اكان ذلك المجتمع ام الطبيعة . يجب الانتباه الى ان هذا الانسان لا يطابق الانسان الحقيقي الموجود لان الانسان بوضعه الموجود متفاعل مع قوى اخرى ، لذا فصفاته وقواه تختلف عن الانسان الذي لا يملك الا ما يعود له ، اي صفاته الاصيلة البدائية .

ثانيا : هناك الاوضاع الاجتماعية التي تشكل الاطار الذي يعيش بداخله الانسان كفرد . والمقصود بالاوضاع الاجتماعية مجموعة النظم والقوانين والتقاليد والعادات والمؤسسات وكل ما تفرضه العلاقات بين الناس وضرورات العيش بمجتمع . واصل هذه الاوضاع محاولة الناس تنظيم العيش وتسييره ضمن ضوابط وقوانين . وتشكل هذه الاوضاع الناتجة عن تصرف الافراد ونشاطهم قوة تنظيمية تؤثر في الفرد نفسه وتضع حدودا لنشاطه .

واخيرا هناك الطبيعة بكل ما فيها من قوى ومواد اولية وتفاعلات . كذلك الطبيعة تتكون من مادة خام مرتبطة بقوانين معينة . فهي بمواردها وعوارضها وقواها تشكل قوة تؤثر في الفرد والمجتمع وتترك اثرا في نوعية التطور .

هذه القوى الثلاث : الانسان كفرد والمجتمع والطبيعة تتفاعل ويؤثر بعضها في الاخر وترتبط بدائرة مغلقة من التأثير والتقابل في التأثير . ومن ذلك ينتج التطور .

بين الانسان كفرد والقوى المحيطة به ، الاجتماعية والطبيعية ، تقابل في التأثير ، فالانسان هو الذي اقام المجتمعات في الاصل وصاغ النظم والقوانين وطور بالتدريج العادات والتقاليد واقام المؤسسات . كل هذه التنظيمات الاجتماعية لا يمكن ان ترجع لغير الانسان

بمصدرها الاول . لو اخذنا اي جزء من الاوضاع الاجتماعية وحاولنا ارجاعه الى اصله لما وجدنا غير انه من صنع الانسان ، بصرف النظرعن الدوافع والاساليب، ولا يمكن ان يكون من صنع اي شيء اخر . ولكن هذه الاوضاع الاجتماعية لا توجد الا لتنظيم نشاط الانسان ، وهي بذلك لا يمكن الا ان يكون لها اثر فيه . النظم والقوانين والمؤسسات تطبع الانسان باتجاهها وتساهم في قولبة تفكيره ونشاطه . والبحوث الاستقرائية الحديثة في علم تطور الحضارات قد اثبتت هذا التقابل بالتاثير بين الفرد والاوضاع الاجتماعية التي يعيش داخلها ، وبين الانسان والطبيعة تقابل في التاثير ايضا . فاثر الانسان في الطبيعة واضح بالمجهود العلمي المتواصل لتعديلها وتسخيرها لخدمته. فجهود الانسان في النمو الاقتصادي قد غيرت شكل الطبيعة وتضاريس الارض وتوزيع النباتات والحيوانات ، وتغلبت على كثير من العقبات الطبيعية . ولكن من الناحية الاخرى نجد ان للطبيعة اثرا واضحا على الانسان يتوضح باثر الحرارة والرطوبة وتوزيع الامطار عن الزراعة مثلا واثر كمية الموارد الطبيعية على درجة النمو الاقتصادي ونوعيته واثر المناخ على نشاط الانسان وحتى تركيبه الفسيولوجي . هناك تقابل في التاثير بين هذه العوامل الثلاثة ، اي ان السببية في التطور متصلة على هذا الصعيد من التحليل والفهم . واذا ما جمعنا القوى الاجتماعية والطبيعية وسمينا المجموع الظروف اصبح بالامكان وضع المسألة على الصورة التالية : هناك الانسان وهناك الظروف ، كل منهما قوة متفاعلة مؤثرة بالاخرى ، والتطور نتيجة تقابل هاتين القوتين ونوعية العلاقة القائمة بينهما . وبفحص وتحليل هذه العلاقة نجد ان السببية المتصلة موجودة وواضحة .

ولكن ذلك لا يعني ان التطور الاجتماعي لا منطق له اي لا اسس فكرية يسير عليها ، ولا تعني بالتالي انه من المستحيل او العبث محاولة تكوين معرفة مفيدة عن طبيعته اي ارجاعه لاسباب ونتائج .

والان نحاول وضع فكرة اولية عن القوة المركزية في التطور ونحاول تطويرها كلما تقدمنا في المناقشة .

يبدو ان الانسان يحتل المركز الرئيسي في عملية التطور فهو الجهة الاولى التي تصدر منها قوة موجهة للظروف المحيطة . قوة الانسان ايجابية بمعنى انها تخلق اثرا جديدا ملموسا في الظروف لا ينحصر في الوقاية والتخفيف والتقليل . لقوة الانسان اثر مباشر حقيقي بالاضافة لقدرته على اتقاء اثار الظروف المحيطة به او تخفيف حدتها . ففي الاقتصاد مثلا كان من نتائج هذا الاثر الايجابي تغير مفهوم الموارد من فيزياوي جامد لمرن متطور . فكمية الموارد الان لا تعتمد على الكمية الفيزياوية للمادة الاولية فقط بل على العلم المطبق المنصب عليها لا بل اصبح مفهوم الموارد اليوم اقرب للعلم المطبق منه للفيزياء وطبقات الارض.

اي ان العامل البشري لا الطبيعي هو الذي اصبح يقرر كمية الموارد الاقتصادية . والامثلة على اثر الانسان الايجابي في الطبيعة كثيرة ومتعددة كلها توضح ان الانسان هو القوة المركزية الكبرى في التطور ومنه تبدأ حلقة التأثير. ولكن هذا المبدأ يحتاج لبعض التطوير . والان ننتقل لتحليل نشاط الانسان بتقسيمه لمركباته الاساسية .

يمكننا ان نقسم نشاط الانسان الى قسمين نسميهما خاصا وعاما . فالنشاط الخاص هو ما يقوم به الانسان عادة لمواجهة الظروف الجارية من يوم لاخر. انه الفعاليات التي يقوم بها اتجاه العوامل المحيطة به المتعلقة بالجوانب الاعتيادية في حياته ككسب العيش واتقاء العوارض الطبيعية والمشاكل والازمات والعقد الاجتماعية ، وتكون بمجوعها التفاعل مع تفاصيل الحياة اليومية. ومن صفات هذا النشاط انه مشتق من الظروف المحيطة ومنسجم معها من حيث انه دائما استجابة او تكيف او رد فعل لها . ففي الاقتصاد هناك البناء الاقتصادي العام بنظمه وقوانينه ومؤسساته وتقاليده وظروفه من حيث الموارد ودرجة استغلالها ومستوى الانتاج وطريقة التوزيع والاستهلاك وغيرها مما يكون بمجموعه ما يسمى بالنظام الاقتصادي الراهن . والفرد الموجود بضمن هذا الاطار العام يقوم بنشاط معين بحدود الاطار والاوضاع ومتصل بها لانه رد فعل لها . هناك المنافسة بين الافراد للحصول على اكبر ربح ممكن ، او بين البائعين للحصول على اعلى سعر ممكن وبين المشترين للحصول على اقلها وسعي الفرد لتبديل عمله او استثماراته او مهنته لزيادة دخله او تحسين شروط عمله الاخرى، وكل محاولات زيادة الربح وتجنب الخسارة وما يتعلق بذلك من العمل لكسب العيش . كذلك العمل السياسي بضمن الوضع السياسي الراهن والنشاط الفكري بمستوى الاحوال المحيطة من حرية وحصانة وتقدير وتوفر الامكانيات المادية ووجود الرأي العام المثقف المقدر ، والاجتماعي الصرف بقدر ما تسمح به التقاليد والعادات ومفاهيم الخطأ والصواب المتداولة بين الناس . كل هذا النشاط المتعلق بالاوضاع الراهنة والعاكس لضروراتها والهادف لتكييف الانسان لها قدر الامكان خاص ينصب على العلاقة العادية الظاهرة الممتدة من يوم ليوم بين الفرد وظروفه المحيطة به . ويمكننا ان نقول ان المحرك لهذا النشاط هو المحافظة على الحياة بمفهومها الضيق المقتصر على المحافظة على النفس والسعي لتحسين الشؤون الخاصة وتجنب كل ما من شأنه تهديدها. اي ان الانسان بنشاطه اليومي الجاري مدفوع بالرغبة للمحافظة على النفس والحياة وكل ما يتضمنه ذلك من سعي وراء العيش وزيادة الرفاه وتحسين الحال وتجنب الاذى والمخاطر وتقليل الالم وزيادة السعادة قدر الامكان وما الى ذلك مما نسميه بالامور الخاصة . وكون هذا النشاط متعلقا بالنفس لا يعني ان ممارسته تكون فردية منعزلة عن الاخرين ، فالفرد بعمله اليومي يدخل بعلاقات اجتماعية عديدة وضمن منظمات ويتشابك مع المجتمع

بسلسلة من الالتزامات والمصالح والعلاقات المتقابلة . كذلك لا يشترط ان يكون السعي للمصلحة الخاصة مباشرا حادا اذ قد يأتي ذلك خلال اعمال اخرى وبطريق متسلسل غير مباشر وغير واضح لاول وهلة . فنحن عندما نقول ان الحافز وراء هذا النشاط هو الصالح الخاص نعني انه الذي يرقد في جذور الاعمال حتى ولو لم يكن مباشرا او ظاهرا ملموسا . وبمعنى اخر نحن نريد ايجاد تفسير نهائي لهذا النشاط لا ان نعرف السببية المباشرة التي تربطه. وبحث العلاقات المتعددة القائمة بين اجزائه قد تظهر اسبابا يصعب القول عنها بانها فردية خاصة مقصودة . كثير من الاعمال والتصرفات اليومية يقوم بها الفرد بفعل العادة والصدف والاعتبارات الاجتماعية والالتزامات نحو الغير والمجاملات . وكلها اذا ما اخذت بذاتها يصعب القول بان وراءها سعيا واعيا للمصلحة الخاصة . الخلاصة هي ان هذا الرأي يهدف للتعرف على الدوافع العميقة النهائية وراء مجموع التصرف اليومي بصورة عامة ولامد طويل من الزمن .

والان ننتقل لمناقشة الاساس الاخلاقي لهذا النشاط . السؤل المطروح للبحث هو علام يدل هذا النشاط من الناحية الاخلاقية ؟ هل يدل على طبع شرير اصيل في الانسان كما قال هوبز ؟

والمناقشة يمكننا ان نصنف هذا النشاط لثلاثة انواع حسب علاقته بالجانب الاخلاقي . قلنا ان النشاط الخاص هذا يهدف اخيرا للمحافظة على استمرارية حياة الفرد ولكنه في تحقيق ذلك يختلف في اثره على الاخرين ، فهو اما ان يكون مفيدا للفرد وللاخرين معا، او ان يكون مفيدا للفرد ومحايدا بالنسبة للاخرين ، اي انه لا يجلب لهم نفعا ولا يلحق بهم ضررا ، او ان يكون مفيدا للفرد ومضرا بالاخرين . النوع الاول من النشاط ممكن ويمكن ايرادا ادلة على وجوده . فالفرد الذي يستثمر ادخاراته في تأسيس مشروع صناعي مربح قد يقدم نفعا لنفسه وللمجتمع بنفس الوقت . كثير من المهن والاعمال اذا ما مورست بصورة طبيعية اعتيادية وحسب ما تقتضيه اصولها يمكن أن تخدم الصالح العام والخاص معا. في هذا الصنف من النشاط يتوفر الجانب الاخلاقي او على الاقل لا يوجد ما ينفيه . النوع الثاني من النشاط هو الذي يعود بالنفع على الذات ولا يؤثر على المجتمع لا سلبا ولا ايجابا . صحيح انه من الصعب تصور اعمال لا ترتبط بمصلحة المجموع اذ لا بد ان يكون لها اثر ما ولو بشكل بعيد ، ولكن لفرض المناقشة سنترك الاثار البعيدة ونفترض وجود اعمال **لا اثر اجتماعي مباشر لها** . هذه الاعمال الموجهة لخدمة الصالح الخاص اقل ما يمكن ان يقال عن اخلاقيتها هو انها ليست منافية للصالح العام ولذلك تنتفي عنها اللااخلاقية . وبجانب هذه الاخلاقية السلبية يمكننا ان نقول انها اخلاقية ايجابية ولكن بنطاق محدود جدا هو ذلك الفرد بالذات باعتباره جزءا من المجموع. اذن فهذه الاعمال اخلاقية بمعنى انها لا تناقض مصلحة المجموع من جهة وتخدم مصلحة جزء صغير منه من جهة اخرى .

الصنف الثالث من النشاط الفردي هو الذي يخدم الصالح الخاص ويضر الصالح العام . انه الحالة التي ينطلق منها الاختلاف الاساسي في الحكم على الطبيعة البشرية . والامثلة على هذا الصنف كثيرة . فقد يستطيع الفرد خدمة نفسه عن طريق خرق القانون والاعتداء على حقوق الاخرين والحاق الضرر بالمجتمع . والضرر بالمجتمع قد لا يكون مباشرا انيا بل غير مباشر وبالامد الطويل وقد لا يأتي عن وعي وتصميم بل نتيجة منساقة مع عمل معين. في الاقتصاد امثلة كثيرة منها سعي مستأجر الارض للحصول على اكبر مردود منها خلال فترة التعاقد حتى ولو ادى ذلك لارهاقها واستهلاك خصوبتها . ورغبة صائد السمك باخراج اكبر كمية ممكنة من هذا المورد الحيواني الان ولو ادى ذلك لتقليل كميته في المستقبل او افناء جنسه نهائيا ، ورغبة المزارعين في رفع اسعار محصولاتهم الى اقصى ما يمكن بصرف النظر عما يلحقه ذلك من ضرر في مستوى معيشة العمال وسكان المدن من الفقراء ، وميل صاحب رأس المال لاستثمار ماله في المشاريع التي تدر اكبر ربح مضمون حتى ولو لم تكن تلك المشاريع من النوع الذي يحتاجه النمو الاقتصادي في مرحلته الحاضرة . ولنأخذ مثلا من نوع اخر هو اهتمام البعض بمصالحهم وانصرافهم لشؤونهم

صدر حديثا : **عن دار الآداب**

الشاعر الكبير نزار قباني

في دواوينه الثلاثة النافذة

أنت لي

سامبا

طفولة نهد

في طباعة انيقة مترفة ستكون زينة لكل مكتبة

الخاصة في وقت تجتاز به البلاد محنة خطيرة تتطلب التضحية والعمل من كل فرد ، وتحتاج أن يضحي الجميع بقسط من راحتهم واموالهم وجهودهم وسعادتهم في سبيل انقاذ مستقبل اجيالهم . في مثل هذه الحالة يكون الفرد ساعيا وراء مصلحته الانية على حساب مصلحة المجموع في المستقبل . في كل هذه الحالات تناقض بين مصلحة الفرد ومصلحة المجتمع ، والنشاط الخاص لخدمة النفس لا يمكن الا ان يلحق ضررا بالاخرين في الحاضر او في المستقبل .

ولتقييم هذا الصنف من النشاط التفصيلي يمكن تقديم ملاحظتين . تتعلق الاولى بقضية الدافع . والدافع، كما قلنا في بحث النشاط الخاص ، هو المحافظة على الحياة . ويجب الا ينظر لقضية المحافظة على الحياة على انها توفير الحد الادنى من الضروريات اللازمة لبقائها بل يجب ان تؤخذ بشكل أوسع وعام يصدر عن مجموع النشاط لا جزء معين منه ، اي اننا عندما نقول ان المحافظة على الحياة هي الدافع وراء النشاط الخاص ـ بنوعه الثالث ـ نقصد استنتاجا عاما ولامد طويل من الزمن لا من خلال حادثة معينة او حالة خاصة او مثل واحد او بعض الامثال القليلة . صحيح ان في كثير من حالات النشاط الخاص يعمل الانسان لا فقط للحصول على الحد الادنى من الضروريات لبقاء حياته بل للجمع والتكديس والزيادة التي لا يحتاجها للمحافظة على حياته . وان كثيرا من اعمال الشر والظلم وما هو مضر بمصلحة الاخرين دافعها الحقد والانتقام والسيطرة اذا ما اتخذنا نظرة قياسية تقارن مقدار الحاجة ومقدار ما يقوم به الانسان لتأمين تلك الحاجة ، واذا ما حكمنا بطريق استقرائي خلال حوادث معينة بالذات ولامد قصير . صحيح ان في النشاط الخاص المناقض للمصلحة العامة كثيرا من الزيادة فوق ما هو ضروري للمحافظة على الحياة ، وان بعضه غير مرتبط بهذا الدافع مباشرة وبشكل حاد ، ولكننا في الوقت الذي نرى كل ذلك لا يمكن ان نغفل ان الانسان الذي قد يكون مبالغا ومخطئا بالتقدير ، وقد يكون دافعه المباشر القريب غير المحافظة على الحياة كالثأر والحقد وحب السيطرة وما شابه ولكنه يقوم بكل ذلك بدافع رئيسي عام هو المحافظة على حياته وتحصينها ضد الاخطار ورفع مستواها . وكون انه في هذه العملية يبالغ ويخطيء وينحرف وينفعل لا يغير من الجوهر الاساسي للدافع .

الملاحظة الثانية هي أن الانسان المدفوع للمحافظة على حياته والذي يقوم بنشاط ضار للمجتمع لا يقوم بذلك وسط فراغ بل بتفاعل مع الاطار الاجتماعي العام ـ مع النظم والاوضاع الراهنة من سياسية واجتماعية واقتصادية، هذه الاوضاع بمجموعها تكون جهازا يحدد بصورة عامة نشاط الافراد ويقولب اعمالهم . لذلك فنوعية هذا الجهاز الاجتماعي لا بد وان تكون ذات علاقة وثيقة بنوعية النشاط الخاص للفرد . فالجهاز السليم المتماسك المؤسس على مباديء من خدمة المجموع بشكل غير متمدن يؤثر في النشاط الخاص للفرد بناحيتين . فهو من جهة لا يسمح للفرد بالقيام بنشاط يضر الصالح العام ويوجد له طرقا اخرى لتحقيق المصلحة الخاصة دونما ضرر بالمصلحة العامة . اي انه يعمل على تنظيم النشاط الخاص وقولبته بالشكل الذي يؤدي لخدمة الصالح الخاص والعام بنفس الوقت . والجهاز الاجتماعي السليم يعمل على تعويد الفرد على خدمة نفسه بطرق سليمة ، كأن يعوده على التضحية بالمصلحة الخاصة الحاضرة في سبيل خدمة المجموع والذي يؤدي في النهاية وبالامد الطويل لخدمة مصلحته ، ومن جهة اخرى يعمل الجهاز الاجتماعي السليم على تغيير عقلية الفرد نفسه وقولبة طبعه بشكل يلائم المصلحة العامة ، اي تطوير موقف وذهنية تخدم الصالح العام ولا يصدر عنها ما هو نقيض ذلك . فالتربية والتعليم والجمعيات والفكر والثقافة ومظاهر الحياة الاخرى ونشاط المؤسسات كالحكومة والدين والعائلة والتقاليد والعادات والمنظمات الكبيرة كلها يمكن ان تنمي عقلية الشعب وتطور سلوكه بشكل يخدم الصالح العام .

وبالعكس الجهاز الاجتماعي الفاسد المتأخر يعمل على تنمية الاتجاه المعكوس وتعميق النظرة المنفعية الضيقة في الفرد وتوسيع التناقض بين تحقيق مصلحته ومصلحة المجموع وتطوير عقلية تدفع في اتجاه واحد هو النفع الخاص عن اي طريق . وعلى ذلك فالنشاط الخاص يعتمد في اثره الاجتماعي على نوعية الجهاز الذي يدور بضمنه لذا فهو بهذا المعنى مفروض لا طوعي . فالفرد في محاولته المحافظة على الحياة تأخذ اعماله طابعا واتجاها منسجما مع الاوضاع الاجتماعية السائدة ونوعية سلوكه تعكس تفاعله مع المحيط والضرر الاجتماعي نتيجة منطقية لنوعية المحيط . الانسان بنشاطه الخاص من يوم لاخر والملتصق بالذات للمحافظة عليها لا ينتظر منه الا ان يتكيف لاوضاعه الاجتماعية . واذا ما استعملنا التصنيف الذي شرحناه سابقا نقول ان العامل او القوة الثانية (المجتمع) تقرر العامل او القوة الاولى (الفرد) . كذلك تبقى العلاقة بين النشاط الخاص وبين الطبيعة (العامل او القوة الثالثة) علاقة تكيف يتضمن معنى الخضوع . فالفرد بنشاطه العادي وسعية اليومي للعيش لا يستطيع ان يغير من الطبيعة شيئا مهما ولا يقدر ان يقولبها حسب رغباته بل يبقى يعمل ضمن النطاق الذي تبيحه الطبيعة بالمستوى العلمي الدارج الموجود ، اي اننا اذا فرضنا مستوى علميا وفنيا معينا ، فنشاط الانسان الخاص يتكيف بالنسبة لاحوال الطبيعة ويكون متناسبا معها . فمثلا الفلاح الذي يزرع الارض في العراق بدون تصريف المياه تتناقص غلته على مرور الزمن بسبب تراكم الاملاح . وضعف الانتاجية هذا يمثل سيطرة الطبيعة ، والنشاط الخاص لذلك الفلاح يعتبر خضوعا لها وانسجاما مع مقتضياتها وشروطها .

والان يمكننا ان نستنتج مما فات من البحث ما يلي : للانسان نشاط خاص دافعه العام المحافظة علي الحياة ونوعيته من حيث انسجامه او تناقضه مع الصالح العام

(اي اخلاقيته) تتوقف عن الظروف المحيطة بذلك الانسان: الاجتماعية والطبيعية . وبصورة تخصيصية اكثر يمكننا ان نقول ان الاوضاع الاجتماعية هي التي تقرر بشكل اساسي نوعية نشاط الفرد . وعلى ذلك فسلوك الفرد بهذا المجال مفروض من الخارج لا اختياري صادر من الداخل .

— ٣ —

ولكن نشاط الانسان لا ينحصر بالخاص العادي ، فهناك العمل التوجيهي العام في التطور يقوم به الانسان بين اونة واخرى في التاريخ . وسنطلق على هذا النوع اسم النشاط التوجيهي . وسنتناول الان بحث مضمونه .

من خصائص هذا النشاط انه يتناول المحيط بشكل عام ، اي الظروف الاجتماعية والاقتصادية والسياسية التي يجري ضمنها النشاط الخاص ، وهو يحدد لا كيفية التفاعل مع الظروف المحيطة بل نوعيتها . موضوع هذا النشاط هو النظم السياسية والاقتصادية القائمة والبناء الاجتماعي والتقاليد والعادات والمؤسسات الفكرية والدينية والمستوى العلمي والفني العام ، لا الظواهر الجزئية الناتجة عن سعي الفرد اليومي للمحافظة على الحياة . ومن صفاته انه يأخذ شكل تغيرات حادة في مجرى التاريخ بعكس النشاط الخاص الذي هو تفاعل مستمر مع الظروف متقارب الوتيرة . والنشاط التوجيهي يتمثل بانبثاقات عميقة الاثر وواسعة النطاق تقطع الجريان الهادىء للتطور الاجتماعي . صحيح ان بذور الانبثاق تكمن في ذلك الجريان الهادىء الذي يسبقه وان القوى المحركة تتراكم وتتجمع تدريجيا خلال مدة طويلة سابقة ، ولكن التغيير الواسع النطاق يأخذ شكلا حادا بارزا في خط التطور الاجتماعي يمكن تمييزه بسهولة .

ومن خصائص هذا النشاط ايضا ان الانبثاقات الكبرى هذه تفصلها فترات زمنية طويلة نسبيا ، اي انها لا تحدث من يوم لاخر او من شهر لاخر او من سنة لاخرى بل غالبا ما تحدث خلال فترات طويلة الامد . لذلك فحوادث هذ النشاط البشري في التاريخ قليلة نسبيا .

ومن اهم ما يتميز به النشاط التوجيهي هو انه صادر عن ارادة الانسان ويمثل نزعته للسيطرة على الظروف . والدافع العميق لذلك اخلاقي مصدره نزعة الخير في الانسان التي هي جزء من ارادة الحق المطلق المجرد في الكون . يعيش الانسان ضمن ظروف اجتماعية وطبيعية قررها هو ، تمثل درجة تنبه ارادة الخير فيه . وبمرور الزمن تزداد تلك الارادة افصاحا عن نفسها ويقظة عن ذاتها فتتحرك ويبدأ التناقض بين متطلباتها الجديدة والاوضاع الاجتماعية والطبيعية الراهنة ، ويظهر بالتدريج الفارق بين ما هو كائن وما يجب ان يكون والذي يعني جمود وتخلف الاوضاع الراهنة . وبتحرك ارادة الخير في الانسان يبدأ القلق والشك بالقيم والاوضاع الدارجة وبتوضح التخلف والانحطاط تدريجيا يزداد القلق والشك . عندها يبدأ الانسان يحاول الخروج من الظروف وتخطيها والتصرف بما لا ينسجم معها فتصده وتمنعه وتلحق الضرر به بل تحطمه احيانا اي انها تبغى مصرة على مقاومة التجديد والاستمرار بما هو موجود . وبهذه العملية يتولد التذمر والمقاومة والمناوشات وبالتدريج تتراكم القوى الجديدة وتتجمع وسط نصر وفشل وبناء وتهديم وامل ويأس حتى تتقوى وتتماسك وتبدأ الاوضاع الفاسدة المتخلفة بالانحلال والتفسخ التدريجي . عندها تحدث الانبثاقة ويجري التغيير العميق وتظهر القوة الجديدة فتضع اسسا جديدة للحياة وتنظم علاقة الفرد بالمجتمع وبالطبيعة من جديد . فيزداد الانسجام بين النشاط الخاص ومصلحة المجموع اي بين الصالح الخاص والصالح العام وتزداد سيطرة الانسان على قوى الطبيعة فتقل قسوتها وتحكمها فيه . وباتمام وضع الاسس الجديدة للمجتمع وتكوين الاطار العام يأخذ الانسان بنشاطه الخاص بالتكييف للوضع الجديد بسلوكه اولا وبالتالي بتفكيره وعاداته ويستمر المجتمع بوضعه الجديد حيث الانسجام بين اتجاه الفرد واتجاه المجتمع وبين المصلحة الخاصة والمصلحة العامة فتتدفق الامكانيات وتتفتح طاقات الابداع والنمو وتزدهر الحضارة ويعم الانسجام والاستقرار حتى تستنفد المرحلة الجديدة ما بها من حيوية وامكانية للتقدم . وبينما الاطار الاجتماعي العام ثابت لا يتغير طيلة هذه الفترة تزداد ارادة الخير تنبها ويقظة فيبدأ التطلع الى الاحسن والاكمل مما هو موجود وما تسمح به المرحلة الحاضرة . وبذلك تغرس بذور الازمة الجديدة وينمو التناقض بين ارادة الحق المتقدمة وبين الاطار الاجتماعي الثابت الجامد فتبدأ الاوضاع باتخاذ صفة التخلف الذي يزداد بمرور الزمن بازدياد يقظة ارادة الحق وتتكلس ، وتبدأ بالدفاع عن نفسها والاصطدام مع الروح الجديدة المتفتحة عند بعض الافراد . وهكذا ينمو الصداع الاجتماعي من جديد . والجهاز الاجتماعي ، الذي اصبح متخلفا الان ، يعكس اثره على الافراد الذين يعيشون بظله فتبدأ عملية تكييف الفرد — عن طريق نشاطه الخاص — للاوضاع المتخلفة بسلوكه وتفكيره وبذلك ينفذ التخلف لاعماق المجتمع ويمد جذوره في تفكير وعادات الناس الامر الذي يجعل عملية التجديد والنهضة اصعب . وبنمو الاختلاف والانشقاق وتجميع القوى والمناوشات والمعارك تحدث انبثاقه جديدة تقوم بتغيير جذري يقوم به قسم من الناس تنبهت واتسقت بهم ارادة الحق قبل غيرهم ، وعن طريق هذا النشاط التوجيهي يستطيع الانسان تغيير اسس المجتمع والسيطرة على ظروفه من جديد وهكذا .

من ذلك يتوضح ان النشاط التوجيهي طوعي صادر عن ارادة الانسان واخلاقي تحركه ارادة الخير المستيقظة فيه . وليس به من الجبرية اكثر مما تقتضيه حتمية تحقيق ارادة الخير لنفسها في الكون خلال التاريخ . فالتقدم الحضاري

أغنيتان

١ ـ لمسة يد

« مهداة الى الصديق الفنان بدر نشأت تقديرا لمحاولاته في الادب المصري»

*

ضع يدك على جرحي يبرد
لا تتردد !
يكفي لشفائي لمسة يد ..
يا سيد قلبي ، يا أوحد !

*

قال الاصحاب عليك بخيل !
هل يبخل من يشرب من ماء النيل ؟
قال الاصحاب عليك جحود !
هل نظروا لصفاء العينين السود ؟
يا سيد قلبي .. يا معبود !
لا تشمت فيّ الاصحاب
فانا اقسمت لهم ستعود
وستشفى جرحى لمسة يد
واقول لهم طاب المجروح

٢ ـ سلّم عليّ

« عندما تنتهي قصة حب .. ويغمض القلب عيونه فان عيون الاخرين لا تنام »

سلم علي ان تلاقت العيون
فالناس ينظرون .. يهمسون
كانت وكان ثم امسى الان
وحاله يقطع القلوب !
سلم علي لا اطيق ان ارى عيونهم تجوب
وتقرأ الاسرار في ارتعاشة الشفاه
ان فجأة نطقت : آه ،
وخانني تماسكي العجيب !

*

سلم علي اننا لسنا هنا اغراب
فهكذا تقول لي :
عيوننا التي لوحها العذاب
وقلبنا الذي يدق تحت هذه الثياب
ورعشة اليدين في اضطراب

*

ولتبتسم ونحن نصنع السلام
حتى نسد في وجوههم بوابة الكلام !
فلا يقال قعدت .. ولا يقال قام !

*

سلم علي لن يضرك السلام
فربما والكف فوق الكف
تذكر الفؤاد .. فارتجف .. ،
واستيقظت اشواقنا النيام !

القاهرة

كمال عمار

العام للبشرية محتم ولكن الشكل الذي يتحقق به ذلك طوعي يصوغه الفكر . الانسان لا يختار ان يكون نزاعا للخير تواقا للحق محبا للتقدم ، وليس من معنى الحرية ان يختار ذلك لان الحرية الحقيقية لا تتوفر بشذوذ الانسان بل انسجامه مع حقيقة الكون وجوهرها . ومهما يكن من امر الحرية في هذا المجال يبقى الانسان حرا في اختيار شكل المجتمع الذي تتحقق به ارادة الحق .

في مجال النشاط التوجيهي تنعكس السببية ، فالانسان قوة مسببة والاوضاع الاجتماعية والطبيعية قوى متكيفة.

ناقشنا فيما فات النشاط الخاص والنشاط التوجيهي العام ووصفنا نوعية السببية في كل منهما . بقي علينا مناقشة العلاقة بين الاثنين لنخلص بنتيجة عن السببية في التطور الاجتماعي بصورة عامة .

قلنا ان النشاط الخاص هو ذلك الذي يتكيف به الانسان بسلوكه وتفكيره للاطار الاجتماعي العام الذي يعيش ضمنه. ولكننا وضحنا كذلك بان للانسان نشاطا توجيهيا يغير به الاطار الاجتماعي نفسه بين فترة واخرى من التاريخ،وعندها يبدأ الانسان بتكييف سلوكه وتفكيره بشكل جديد يلائم الاوضاع الجديدة . من ذلك يتوضح ان النشاط التوجيهي يحتل المركز الاساسي في التطور الاجتماعي لانه عملية تجديد عميقة واسعة النطاق يقوم بها الانسان نفسه بين اونة واخرى . وبالرغم من انه بعد ان يقوم بذلك يصبح تحت تأثير ما صنعه لفترة من الزمن الا انه اثبت بمرور التاريخ قدرته على التحرر ثانية وتبديل نظمه وقوانينه واوضاعه كلية . صحيح ان الانسان في تطوره يتراوح بين خضوع للظروف مرة وسيطرة عليها اخرى ، الا ان هذا الازدواج ليس من النوع الذي يجعل السببية تحتمل الاتجاهين . بين النشاطين : الخاص والتوجيهي اتحاد جوهري وان اختلفا في التعبير . الحقيقة الاصيلة في الحياة هي نزعة الحق (المتمثلة بحب المحافظة على الحياة وشروط استمرارها وتحسينها ما امكن) ولكن الانسان قد يسلك لتحقيق ذلك طرقا مختلفة ، تارة عن طريق تغيير اسس المجتمع الراهنة وتارة بالتكيّف لها . ولكن لاختياره مغزى يوضح الاتحاد في الجوهر . انه يريد المحافظة على الحياة وتحسينها ولكنه في الامد القصير

ـ التتمة على الصفحة ٨٦ ـ

الانسان والتقدم

ـ تتمة الصفحة ٧١ ـ

وبحياته العادية من يوم الى يوم وعندما يكون خلية في بناء اجتماعي متخلف لا يستطيع ان يقوم بذلك عن طريق تغيير كل المجتمع بل يضطر للرجوع لنفسه والارتداد نحو ذاته والاهتمام بالمحافظة عليها عن طريق الالتئام والتكييف للمحيط . والافراد يختلفون فيما بينهم ومن وقت لاخر بمقدار رجوعهم لانفسهم وارتدادهم من العام للخاص، من مصلحة الجماعة لمصلحة الذات . فبعضهم تكون رجعته قوية وتكيفه شديدا لدرجة تضعه في مكان معاكس لمصلحة المجموع ، وبعضهم يحاول الاعتدال وهكذا . اذن فالجوهر واحد وان اختلفت المسالك . في النشاط الخاص يحاول الانسان المحافظة على الحياة ولكن بنطاق ضيق محدود قد لا يتعدى نفسه . وفي النشاط التوجيهي يحاول ذلك على نطاق واسع عام يشمل الامة او حتى الجنس البشري. القوة الاصيلة في التطور هي ارادة الخير ، ما يقوم به الانسان لتجديد الحضارة كلما تحجرت اسسها وتخلف البناء الاجتماعي . هذا النشاط لا يمكن ان يحدث من يوم ليوم ولا يناسب تفاصيل العيش الخاص لفرد او عدة افراد بل هو عملية طويلة الامد عميقة الاثر واسعة النطاق تشمل المجتمع كله . انها القوة الايجابية الوحيدة في حين ان الظروف ، اي الاوضاع الاجتماعية ، قوة سلبية تفرض على الانسان التكييف في تأثيرها على سلوكه وتفكره انها تعمل كعائق وكصعوبة بوجه النزعة للمحافظة على الحياة وتحسينها التي هي الدافع وراء كل نشاط الانسان الخاص والعام. من ذلك يمكننا ان نستنتج ان الانسان هو القوة التي تخلق وتسيطر على التطور ، جوهره الاصيل نزعة الخير ـ هذا هو اتجاه السببية في التطور الاجتماعي.

والان لا بأس من اعطاء بعض الملاحظات عن بعض المدارس الفكرية المعينة في قضية التطور. فالاقتصاديون الكلاسيكيون (آدم سمث وبنتام مثلا) قد قصروا نشاط الانسان على الخاص واعطوا حكما على التطور الاجتماعي . هناك الطبيعة البشرية الثابتة القوانين وهي ان الانسان فردي يعمل لنفع ذاته ، وعاقل يحاول دائما زيادة السعادة وتقليل الالم لاقصى ما يستطيع وبفعل المنافسة يتحقق التوازن الاقتصادي وتصل الكفاءة حدها الاقصى والمجتمع ينمو كما تنمو الشجرة بشكل تدريجي طبيعي، فيزداد عدد السكان ويزداد الادخار وتكوين رأس المال . وهكذا يتصاعد النمو الاقتصادي ويزداد تقسيم العمل والانتاج بشكل مستمر . وفي كل هذا التطور يتصرف الانسان حسب ما تقتضيه قوى السوق الخارجة عن سيطرته ، وبفعل اليد الخفية يتطور المجتمع عن طريق تصرف الفرد اي السعي وراء مصلحته الخاصة . اذن فالتطور عملية تسيرها قوانين طبيعية تنبع من الطبيعة البشرية الثابتة وليس بمقدور الانسان تغيير ذلك . ولكن بجانب كل ذلك فالتطور الاجتماعي يصدر عن الانسان لانه اسس القانون الطبيعي وتكمن في الطبيعة البشرية .

اما الفلسفة الماركسية فبالرغم من تأكيدها على ما يشبه النشاط التوجيهي الذي هو عندها الصراع الطبقي والسير الحتمي للتاريخ نحو هدف اصلح الا انها قد اغفلت الاثنين معا وعزت التطور لقوة خارجة عن الانسان هي حركة المادة. ليس للانسان دور ارادي ذاتي في التطور ، بل ارادته وفكره انعكاس لتطور الاوضاع المادية ـ عوامل الانتاج ـ المحيطة به!

هناك بعض التقارب بين فكرة النشاط التوجيهي ونظرية شمبيتر المبنيه على دور المنظم في التجديد والاختراع وتحسين الانتاج . فقد اكد شمبيتر على دور الانسان في تغيير المجرى الهادىء لاقتصاد المنافسة الحرة الذي تصوره الكلاسيكيون واحداث رجة عميقة في التوازن الاقتصادي. فالتطور الاقتصادي عنده ليس الا حلقة متتابعة من التحسينات الكبرى التي يدخلها المنظمون والتي تعيد تنظيم الاقتصاد من جديد حتى اذا ما هضمت وتمثلت ظهر تحسين جديد بشكل انقلاب في طرق ووسائل الانتاج وهكذا . وبذلك اعطى للانسان دورا ارادياً ذاتيا في عملية التطور الاقتصادي . ولكن هذه النظرية برغم كل هذا التقارب بينها وبين النشاط التوجيهي تبقى مقتصرة على تفسير النمو الاقتصادي فقط ومحصورة في نشاط الفرد المنظم . اي انها لم تتعرض للعمل الجماعي . كذلك لم تكن نظرية شمبيتر مرتبطة بمبدأ خلقي يشدها لحقيقة الكون كما هو الحال في ارتباط النشاط التوجيهي بنزعة الحق المطلقة .

ـ ٤ ـ

تم لنا الان توضيح الخصائص الاساسية للتطور الاجتماعي بشكل عام سنحاول في الجزء التالي من المناقشة استعمال ذلك في تفسير التطور في المجتمع العربي الحاضر.

يتميز المجتمع العربي الحاضر بانه متأخر يعمه الفساد والانحراف . فهو فاقد لوحدته السياسية ، وحريته في الداخل والخارج غير تامة بعد ، واقتصاده متخلف تسوده الفوضى في التنظيم والتوزيع . اي ان الاطار الاجتماعي العام متخلف متناقض مع ما يجب ان يكون . ولكن مشكلة التخلف لا تنحصر في الاطار الاجتماعي العام تجاوزته للفرد نفسه . الفرد العربي ، بنشاطه الخاص قد بدأ بالتفاعل مع الاطار الاجتماعي والتكيف له فنمت فيه عقلية وسلوك وعادات منسجمة مع فساد ذلك الاطار . وبالتدريج بدأ التقارب بين الاطار والمحتوى ، بين النظام والفرد يزداد. وبذلك تسرب الفساد للفرد نفسه . اي ان المشكلة اصبحت اجتماعية وفردية بنفس الوقت لانها تشمل الاوضاع الاجتماعية العاملة والافراد انفسهم . والمغزى المهم لذلك هو ان المشكلة اصبحت اعمق وحلها اصعب ، وان هذه الصعوبة تزداد بمرور الوقت . ولنأخذ مثلا وضع التجزئة الحاضر في الوطن العربي . نلاحظ ان هذا الوضع قد اخذ بالتجمد والتكلس بمرور الوقت وهو سائر في هذا السبيل ان لم يغير بشكل جذري . فقد اخذ التفكير يألف

الوضع ويتفاعل معه ويتكيف له . وظهرت حركات اقليمية واراء تمثل التجاوب معه ، وبدأ الفرد الاعتيادي يتصرف ويفكر على اساس التجزئة . وقامت مصالح واعتبارات اقتصادية وسياسية مرتبطة بهذا الواقع تتبناه وتدافع عنه.

واصبح وضع التجزئة مستندا على قواعد مصلحية في الحكم والنفوذ والمال وتطورت له بعض العادات والاعتبارات، وانعكس في الفكر والفن والتقاليد الشعبية . اي انه حدث شيء من تكيف الفردللاطار العام عن طريق النشاط الخاص.

في وسط هذه الظروف شهد هذا العام قيام الجمهورية العربية المتحدة بفعل ارادة تخطت الاوضاع والاعتبارات المصلحية والعقبات المادية . وكانت بذلك نشاطا توجيهيا يهدف لاعادة سلطة الانسان العربي على ظروفه ومحيطه، على اطاره الاجتماعي الذي عاش ضمنه لسنين . فهي تحول اساسي في مجرى التاريخ العربي ينشد اعادة تنظيم حياة العرب على اسس جديدة وهذا معنى ثوريتها . لذلك فهي اكثر من جمع فيزياوي لقطرين واوسع من قضية الوحدة بمفهومها اللغوي الاعتيادي لانها تضم في حناياها روحا استطاعت ان تعلو فوق المألوف المتعارف، فوق المصالح والاعتبارات والعرف السائد . الجمهورية العربية المتحدة هي البداية العملية للنهضة الشاملة والبعث العربي التام، لان وراءها نظرة تقدمية متطورة تريد السيطرة على الظروف لا التكيف لها،لذلك فعنصر التجديد بها لا يقتصر على الجانب السياسي الوحدوي بل يتعداه لنواحي الحياة الفكرية والاجتماعية والاقتصادية . كان الاسلام نشاطا توجيهيا مثل محاولة العرب للسيطرةعلى الظروف، وقيام الجمهورية العربية المتحدة اليوم يمثل تحركا توجيهيا جديدا يعيد العرب للتاريخ الحي من جديد .

قلنا ان مشكلة التخلف في المجتمع العربي الحاضر لاتنحصر في الاطار الاجتماعي بل تتعداه لشخصية الفرد ذاتها . وذلك يعني ان المشكلة اجتماعية وفردية بنفس الوقت . ولكن ماذا يترتب على هذا الحكم بعد ان وصلنا لتلك النتيجة عن السببية في التطور الاجتماعي ؟ يتضمن هذا الحكم الشيئين التاليين : اولا ان الحل لا يمكن ان يكون عن طريق اصلاح الفرد قبل اصلاح النظام . اي انه يجب ان يستهدف تغيير الاطار الاجتماعي العام الذي يعيش بضمنه الافراد عن طريق نشاط توجيهي يسيطر به الانسان على الظروف العامة ويغير اسس المجتمع ، وثانيا ان النشاط التوجيهي هذا يجب الا يقتصر على ذلك ، بل يتعداه لتغيير سلوك وتفكير الفرد نفسه . وبكلمات اخرى ان مهمة النهضة احداث نظام صالح للمجتمع وتربية صالحة لافراده . من ذلك يبدو ان القول بشعبية المشكلة لا يتضمن تحديدا لموضع حلها بل لنوعية الاجراءات الواجب اتخاذها بعد احداث التغير في الاطار الاجتماعي العام . ولنناقش هذه النقاط بشيء من التفصيل .

هناك ميل في الرأي العام وحتى عند بعض المثقفين لاغفال جانب الفرد في تحديد مشكلة المجتمع العربي وحصرها في فساد وتخلف النظم والقوانين والاوضاع العامة التي تشكل اطار المجتمع . ويبدو ان مبعث ذلك عاملان هما الضعف الفكري العام الذي سبب هذا الانحياز لجانب واحد لا لشيء الا لانه واضح ملموس لا يحتاج لعمق وامعان ، اذ من صفات الفكر الضعيف انه لا يستطيع الغوص في مضاعفات المشكلة والتعرف على اوجهها المتعددة ومتشابكاتها والنفوذ لجوانبها العميقة الخفية بل يقتصرعلى الظاهر منها الذي يقع تحت سيطرة الحواس الاعتيادية . وبجانب ذلك هناك ميل خفي للتخلص من المسؤولية وخوف من مجابهة الحقيقة يدفع لوضع اللوم كاملا على الاوضاع العامة التي تدعى الظروف كالاستعمار والاقطاع . هذه النظرة المنحازة في تشخيص الداء هي نتائج ضعف الجيل الحاضر وخوفه من مصارحة نفسه بحقيقة الواقع ليتسنى له وضع الحل الصحيح . الجيل الحاضر لا يريد ان يعترف بان الفرد نفسه قد وصل اليه الفساد والتخلف فانحرف خلقه ولانت شخصيته فاصبح سلوكه ودوافعه وتفكيره منسجما مع الواقع الفاسد . وازاء هذا الغموض في تحديد المشكلة اصبح من الصعب على الفرد العامي ان يتصور بانه بسلوكه وتفكيره الحاضر مساهم بالتخلف والفساد ومساعد له وانه بذلك سيصبح معرقلا للتقدم اذا ما حدث تغير فجائي بالنظام القائم .

ولكن الاعتراف بتسرب الفساد لشخصية الفرد لا يعني تحديدا للحل . فاصلاح الفرد بنشاطه الخاص واقع تحت تأثير الاطار الاجتماعي ومسير به لحد بعيد . فاصلاح الفرد صعب ان لم يكن غير ممكن اذا بقي الاطار العام كما هو . هذا هو سر ضعف اثر الوعظ والنصح والارشاد والدعوات التي تخاطب الفرد وتحثه لتعديل سلوكه . وتتجسد هذه الفكرة في ظاهرة الصعوبة التي يجابهها البيت والمؤسسات الدينية في التربية وتقويم الاخلاق . اذ ان التربية البيتية والوعظ الديني يبتلعها المحيط الفاسد الذي يعيش فيه الفرد وتطغى عليها الاثار المعكوسة التي يفرضها الاطار المتخلف للمجتمع وبذلك يتضح خطأ الرأي الذي يردد احيانا بان مشكلة المجتمع تنحل اذا ما اصلح كل منا نفسه وقام بواجبه خير قيام .

اذن فحل مشكلة المجتمع العربي تحتاج لعمل توجيهي عام يصدر عن صميم ارادة الامة الحقيقية ليتغلب على الظروف الفاسدة . انه عمل غير منسجم مع الظروف الموجودة بل منفصل عنها ، مصدره واساسه ارادة الخير المتحركة في الامة لا قيم الواقع الفاسد .

وقوة هذه الارادة المتفتحة في بعض الافراد تحتاج لتجميع وتنظيم وبلورة مستمرة تحيلها من قطع متناثرة لكتلة متراصة منسجمة مترابطة عضويا بعضها ببعض، تبقى تعمل على هز اعماق الوجدان في الافراد الاخرين وتقاوم الفساد والتأخر حتى تستطيع تحريك العجلة واحداث تغيير اساسي في اطار المجتمع . وبكلمات اخرى يحتاج الحل الى عمل جماعي منظم .

ولكن هذا العمل التوجيهي يجب الا يقتصر على تغيير اطار المجتمع بل يتعداه لمحاولة احداث تغيير في الافراد انفسهم ليتم الانسجام . وكنا قد قررنا أن النشاط الخاص الافراد يعتمد على نوعية الاطار الاجتماعي وان الفرد في نشاطه الخاص يكيف لنوعية الاوضاع العامة الراهنة ، ولكن ذلك يجب الا يستنتج منه بان مجرد تغيير الاطار الاجتماعي والمؤسسات سيبدأ عملية تفاعل جديدة بين الفرد والاطار يتكيف بها الفرد للاوضاع الجديدة وبذلك يصلح سلوكه وتفكيره بشكل طبيعي هادىء . فالمحافظة على التغيير في الاطار الاجتماعي تعتمد على مدى النجاح في تغيير النشاط الخاص للافراد . وهذه مهمة واجهت الكثير من التغييرات السياسية الكبرى في التاريخ ، اذ لوحظ ان نجاحها في المرحلة الاولى يعقبه عادة دور صراع مع التخلف الداخلي تبدأ به العقلية الرجعية ورواسب الفساد في الافراد بالارتداد على الوضع الجديد كما هو واقع الان فعلا ازاء الاتجاه القومي المتحرر في الوطن العربي . وقد ادى هذا الميل للردة الى فشل بعض الثورات التي لم يستطع القائمون بها رؤية المدى الحقيقي للتغير الذي يجب ان يقوموا به عندما قصروه على احداث التغيير في الاطار فقط اي مجرد تمهيد الطريق . وقد مثل هذا الاتجاه في الثورة في مصر محمد نجيب ، وعارضه عبد الناصر . فالذي يقرأ « فلسفة الثورة » يرى ان الفكرة الاساسية فيه هي التأكيد على ضرورة توسيع اهداف الثورة لابعد من قضية تمهيد الطريق وازالة العقبات امام الشعب ازاء اكتشاف حقيقة ابعاد المشكلة وطبيعتها .

اذن فقضية النهضة لا تنحصر في تغيير الاطار الاجتماعي وحده بل تتعداه لمفهوم اعمق يتضمن تربية مستمرة شاملة للشعب تستهدف اقتلاع الرواسب والانحرافات في التفكير والسلوك ، وتنمية شخصية جديدة للفرد . ويبرز في هذا المجال دور التعليم الرئيسي في عملية التطور . كذلك توضح هذه النقطة ان دور الدولة ليس سلبيا ينحصر في تهيئة جو ملائم صديق للنشاط الفردي كما يقول آدم سمث بل هو ايجابي يساعد النهضة عن طريق تغيير النشاط الفردي نفسه . هذا هو الاساس الفكري للمفهوم الاشتراكي للدولة ، ويمثله في الوطن العربي اليوم تجربة الجمهورية العربية المتحدة الان . فقيامها يمثل نشاطا توجيهيا حقق تغيرا جذريا في الاطار العام في القطرين سوريا ومصر . ولكن هذا التغير لا يمكن المحافظة عليه وتثبيته والارتقاء منه لما هو اوسع واكثر الا اذا اخذت الجمهورية اتجاها انقلابيا وركزت جهودها على تحقيق تغير عميق في اوضاع الشعب الاقتصادية والاجتماعية والثقافية وتبديل في شخصية الفرد ذاتها لتجعل نشاطه الخاص منسجما مع الصالح العام . ولتحقيق ذلك لا مناص من الاسلوب الثوري والمرحلة الانتقالية . اما اذا اقتصرت على التغيير في الاطار العام واهملت التناقض الموجود بين النشاط الخاص للفرد واطار المجتمع فهناك خطر تحرك الفساد الداخلي وارتداده عليها . وقد حققت القومية العربية الجمهورية بنظرتها الانقلابية لقضية النهضة ولا سبيل للمحافظة عليها وتثبيتها وجعلها متقدمة متطورة الا بالاستمرار بهذه النظرة .

وبنفس المنطق نتوصل لملاحظة مهمة على وضع بعض اجزاء الوطن العربي خارج الجمهورية . لا يزال الاطار الاجتماعي العام متخلفا في هذه الاجزاء . ويتفاوت التخلف من بعضها للاخر فهو في بعضها اخذ في التركز بينما هو في دور الاضمحلال في البعض الاخر . الاقطار التي يسير التخلف بها الى التمركز معرضة لخطر يجب الالتفات اليه يكمن في تكييف الفرد التدريجي له . فالفرد الذي يعيش ضمن اطار اجتماعي متخلف منقاد بسلوكه الخاص للتفاعل معه والانسجام مع نوعيته . ويؤدي ذلك بدوره لعرقلة النهضة في ذلك القطر وبالتالي في الاقطار الاخرى لما بينها من ترابط عضوي . وتوضح تطورات السياسة العربية في الخمس سنوات الاخيرة ذلك بكثير من الجلاء . ان ذلك لا يعني تغير مجرى التطور الحتمي وابعاد النهضة نهائيا عن ذلك القطر لان ذلك متناقض مع حقيقة الكون . ولكن هذا التفاعل يجب الا يؤخذ بشكل مبسط سطحي ، فالنهضة ليست عملية هادئة المجرى تسير حسب خطة حتمية بكل تفاصيلها . ان وراء النهضة العربية الحاضرة ارادة الحق في التاريخ ولكن تنبه هذه الارادة لا يجري بشكل ميكانيكي رياضي رتيب مستقل عن الظروف ، بل عملية بشرية يلعب الاختيار والتصميم والتنظيم دورا مهما بها ، وهي مرتبطة بالظروف باخذ ورد وجذب ودفع . ان النهضة التي تكون قواها مشتتة وغيرها خاضعة لجهاز تنظيمي ينسقها ويعتصر كل ما بها من طاقة والتي لا تتخذ دورا ايجابيا في اكتشاف وتطوير قوى جديدة في حين ان الواقع الفاسد الذي تريد التغلب عليه متكلس متماسك القوى ودائب على تطوير قوى واوضاع تساعده على البقاء ومصمم على الدفاع بل الهجوم ومصر على الانتصار ، ان نهضة هذه خصائصها قد لا تستطيع تحقيق اهدافها في الوقت المناسب ، اذ للزمن اهمية لا يمكن اغفالها . ولعل احسن من عبر عن اهمية عامل الزمن هو كينز بقوله المعروف « في الامد الطويل سنكون كلنا امواتا . » ان الاطمئنان لحدوث النهضة ذات يوم من المستقبل في هذه الاجزاء من الوطن العربي لا يعني شيئا اذا لم يكن لذلك المستقبل حدود وارتباط بالحاجات . والخلاصة هي أن تكاثف الفساد وازدياد التخلف في بعض اجزاء الوطن العربي خارج الجمهورية قد يسبب تأجيل النهضة الشاملة وان لهذا التأجيل اهمية لا يمكن اغفالها . ان ازدياد التخلف ليس فيه بذاته ما يجعل النهضة كما يقول البعض بشكل سطحي بل على العكس تماما . والجمهورية العربية المتحدة مدعوة لاخذ ذلك بعين الاعتبار في رسم سياستها العامة . عليها أن تواجه خطر تحرك وارتداد التخلف والفساد والرجعية في بعض اجزاء الوطن العربي الاخرى (١) .

كلية الزراعة ـ بغداد **سعدون حمادي**

---

(١) يود الكاتب تقديم الشكر للاخوان الذين ناقشوا هذه المقالة قبل نشرها وساعدوا بما قدموه من ملاحظات على تقويم بعض جوانبها .